المجمع العالمي لأهل البيت

٩

في رحاب أهل البيت

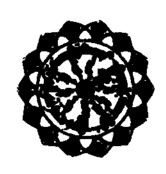
الشَّفَاعَةُ


بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب أهل البيت عليهم السلام

(٩)

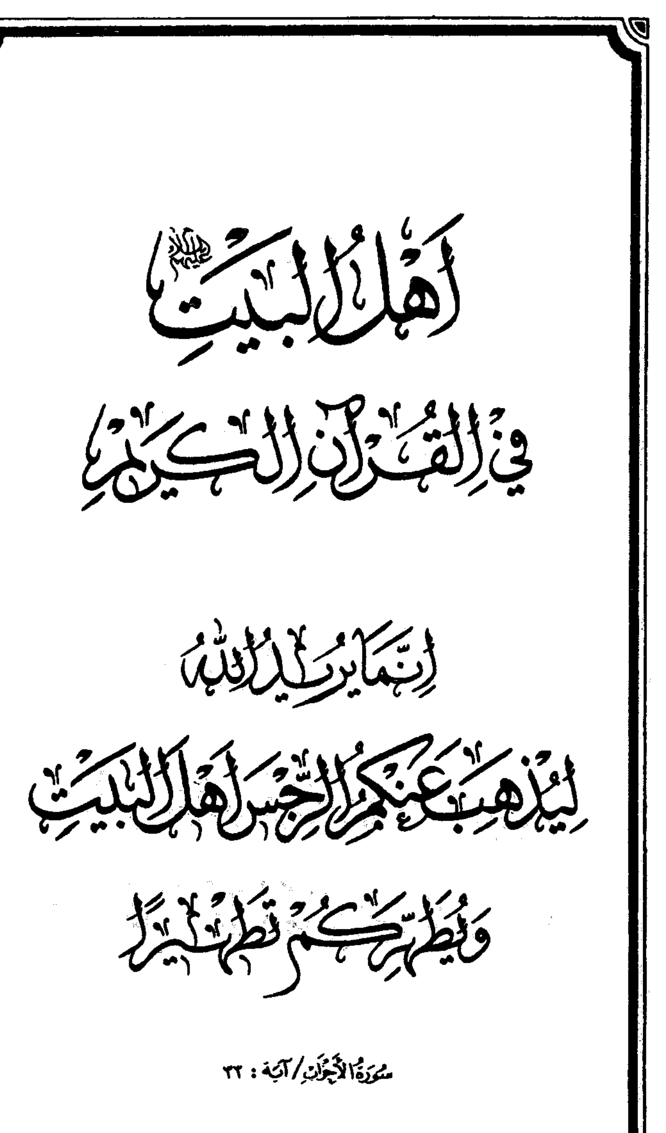
الشفاعة



العنوان: في رحاب أهل البيت عليهم السلام: الشفاعة
المـــؤلف: الشيخ عبدالكريم البهبهاني ـ لجنة البحوث
الموضوع: كلام
الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
الطبعة الاولى: ١٤٢٢هـ
الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ
الطبعة الثالثة: ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م
المطبعة: التعارف للنشر ـ بيروت ـ لبنان

ISBN: 964-8686-49-1

www.ahl-ul-bait.org



أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب / آية : ٣٢

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً

« الصحاح والمسانيد »

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت عليهم السلام الذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم يعبّر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربّي النفوس المستعدة للاغتراف من هذا المعين، وتقدّم للأُمة الإسلامية كبار العلماء المحتذين لخُطى أهل البيت عليهم السلام الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدّمين لها أمتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ منطلقاً من مسؤولياته التي أخذها على عاتقه ـ للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي ضبّب عليها أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطى أهل البيت عليهم السلام وأتباع مدرستهم الرشيدة التي حرصت في

الرد على التحديات المستمرة، وحاولت أن تبقى على الدوام في خطّ المواجهة وبالمستوى المطلوب في كلّ عصر.

إنّ التجارب التي تختزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في هذا المضمار فريدة في نوعها ؛ لأنها ذات رصيد علمي يحتكم الى العقل والبرهان ويتجنّب الهوى والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد جاءت محاولة المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام لتقدم لطلّاب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنيّة في باب الحوار والسؤال والرد على الشبهات ـ التي أُثيرت في عصور سابقة أو تثار اليوم ولا سيّما بدعم من بعض الدوائر الحاقدة على الإسلام والمسلمين من خلال شبكات الانترنيت وغيرها ـ متجنّبة الإثارات المذمومة وحريصة على استثارة العقول المفكرة والنفوس الطالبة للحق، لتنفتح على الحقائق التي تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر يتكامل فيه العقول ويتواصل النفوس والأرواح بشكل سريع وفريد.

ولابدّ أن نشير الى أن هذه المجموعة من البحوث قد أُعدت في لجنة خاصة من مجموعة من الأفاضل . ونتقدم بالشكر الجزيل لكل هؤلاء ولأصحاب الفضل والتحقيق لمراجعة كلّ منهم جملة من هذه البحوث وابداء ملاحظاتهم القيّمة عنها.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد قدّمنا ما استطعنا من جهد أداءً لبعض ما علينا تجاه رسالة ربّنا العظيم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً.

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونية الثقافية

الشفاعـة

مفهوم الشّفاعة

وردت مادة « شفع » في ثلاثين مـوضعاً مـن القـرآن الكريم، وإذا ما تدبرنا هذه الثلاثين موضعاً أمكننا الخـروج برؤية واضحة عـن مـفهوم الشـفاعة فـي القـرآن الكـريم، والشفاعة تعني في الاستعمالات العرفية تدخل شخص لدى شخص آخر بهدف تحصيل مسامحة منه في حـق أو حكـم ثابت في عاتق شخص ثالث. وهذا هو المعنىٰ الذي استعمله القرآن الكريم فـرفضه تـارة وآمـن بـه تـارة أُخـرىٰ . ولذا فالشفاعة في القرآن الكريم علىٰ قسمين :

١ ـ شفاعة باطلة لأنها تتضمن معنىٰ الشـرك، مـن قـبيل قول المشركين عن الاصنام: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[١].

وبطلان هذه الشفاعة أوضح مـن أن يـحتاج إلىٰ بـيان ، فهؤلاء هم الذين عينوا الشفعاء لأنفسهم من جهة ، واعتقدوا فيهم تدبيراً وتأثيراً علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ من جهة ثانية ، وكلتا الجهتين باطلتان، فإن الشفاعة تقتضي بطبعها أن يكون

---

(١) يونس : ١٨

الشفيع مقبولاً لدىٰ المشفّع ، فكيف تكون الأصنام شفيعاً عند الله ؟

ثم إنّ الشفيع ليس له قدرة مستقلة عن الله سبحانه، وبالتالي لا يمكن افتراض أن يكون مؤثراً فيه ، ولذا فهذه ليست شفاعة أصلاً وإنما ركام من الخيالات والأوهام . وفي ردّها، قال القرآن الكريم : ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾[1] ، وأوضح من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾[2] ، وقوله تعالىٰ : ﴿قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض﴾[3] فكلام المشركين عن الشفاعة والشفعاء بلا أساس ولا مستند، لأن الشفاعة رحمة يفيضها الله علىٰ عباده عبر وسائط يختارها ويعينها بنفسه، والرحمة لا تدرك المشركين ، والشفعاء وسائط يعينهم الله ولا يختارهم المشركون ، والشفيع واسطة في انتقال الرحمة وليس سبباً فيها ، ولأجل هذه الخصائص بطلت الشفاعة الشركية.

---

(١) البقرة : ٤٨

(٢) الانعام : ٥١

(٣) الزمر : ٤٤،

٢ـ شفاعة شرعية صحيحة، وهي ما كانت بإذن الله، ومن قبل أفراد رضي الله عنهم وعيّنهم للشفاعة، ولصالح أفراد رضي الله في الشفاعة لهم، فهنا ثلاثة شروط. ورد الشرط الأول في عدة آيات، منها: قوله تعالىٰ: ﴿ مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلّا باذنه ﴾[1].

وهذه الآية بنفسها دالة على الشرط الثاني لأن الإذن إذا صدر من الله سبحانه يكون إذناً في الشفاعة وفي الشفيع، بما يعني رضا الله سبحانه وتعالىٰ عن الشفيع. أما الشرط الثالث فقد ورد فيه قوله تعالىٰ: ﴿ لا يشفعون إلّا لمن ارتضى ﴾[2].

وحيث إنّ القسم الأوّل من الشفاعة يفتقد إلىٰ هذه الشروط لذا سيجد المشركون أنفسهم في يوم القيامة بلا شفعاء، وسيدركون بطلان الشفاعة التي اعتقدوها، وسيقولون بألسنتهم ﴿ فمالنا من شافعين ﴾[3].

ونحن إذا تأملنا في القرآن الكريم لاحظنا اتجاهاً عاماً وأُسلوباً شائعاً في التعبير عن مظاهر القدرة والكمال؛ يتمثل بالنفي ثم الإثبات ثم الإفاضة.

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) الأنبياء: ٢٨.
(٣) الشعراء: ١٠٠.

فنجد آيات تنفي هذه المظاهر عن غير الله، وأُخرىٰ تثبتها لله سبحانه، وقسم آخر يشير الى إفاضة الله بعض هذه القابليات على بعض مخلوقاته، وهذا الأُسلوب بمراحله الثلاثة استعمله القرآن الكريم في مجالات الرزق والخلق والحكم والملك والتوفي. وهو جارٍ في موضوع الشفاعة أيضاً، فان الآيات النافية للشفاعة عن غير الله سبحانه غرضها حصر الكمال والقدرة بالله ونفيها عمن سواه، والآيات المثبتة للشفاعة غرضها بيان أن الذات الإلهية تتصف بهذا المظهر من مظاهر القدرة والرحمة اتصافاً ذاتياً، والآيات التي تثبت الشفاعة لغير الله سبحانه غرضها التأكيد على قدرته ببيان أن هذه القدرة في أعلى مراحلها، بحيث إنّ الله سبحانه وتعالى قد يتولى الشفاعة بنفسه وقد يحولها الى من يرتضيه من عباده وأوليائه، أي يتصرف فيها وينقلها من نفسه الى أحد أفراد خلقه، ولعلّ من جملة أغراض هذا الأُسلوب القرآني تربية العبد على التعلق بالقدرة الإلهية والرحمة الربانية المطلقة، وعدم الاعتداد بالعمل الصالح وحده، لأن العمل إنما ينجي في محكمة العدل إذا كان بالنحو المقتضي للنجاة، وهل هناك من يستطيع الادعاء بأنه مستغنٍ بعمله عن رحمة الله سبحانه؟ بل يوغل القرآن الكريم في هذا

الاتجاه أكثر حينما يشعرنا بأن الأُمـور لا تـخرج عـن يـده وسلطانه وقدرته سبحانه وتعالى حتى عندما يـقضي بـقضاء حتمي لا تغيير له، كقوله تـعالى: ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق* خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد* وأما الذين سُعدوا فـفي الجنّة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شـاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾(١). فمع أنه تعالى قد حكـم بـالخلود فـي النار على الأشقياء، وبالخلود في الجنّة على السُعداء، وجعل هذا الخلود بمنزلة خلود السموات والأرض، ولكنه مع ذلك علّقه على مشيئته ، إشعاراً منه بأن الأُمور لا تخرج من يـديه وقبضته حتى تلك التي يُصدر فيها أحكاماً حتمية، فإذاكانت أحكامه تعالى الحتمية لا تسلب عنه القدرة على شـيء، ولا تضطرّه الى شيء، ولا توجب عليه شيئاً، فهل تكون أعمالنا أسباباً تسلب عنه القدرة وتوجب لنا عليه النجاة وتضطرّه الى شيء؟!

وإذاكان الله سبحانه وتعالى يؤكد لنا على قدرته المطلقة حتى في مثل تلك الموارد، لبلغت أنظارنا الى هذه القدرة التي لا يحدّها شيء ولا يقيدها شـيء حـتى قـضاء الله وأحكـامه

(١) هود: ١٠٦ـ١٠٨.

نفسه، فمن المناسب جداً أن يشير الى أنّ عمل الإنسان مهما كان صالحاً لا يغنيه عن رحمة الباري تعالى ولا يحدّ من قدرته، واذا كانت مشيئة الله شرطاً في خلود من حكم الله نفسه بخلوده في الجنة أو في النار، فمن الأولىٰ أن تكون شرطاً فيمن لم يصدر بحقه بعد الحكم الإلهي.

وليست الشفاعة إلا مظهراً لإرادة الله ومشيئته ورحمته المطلقة، وهي لا تكون جزافاً بل على أساس ضابطة معينة، فالذي يريد بلوغ مقام علمي رفيع لابد وأن يكون قد أحرز بعض مقدماته، وبلغ درجة قريبة منه، فتكون الشفاعة هنا ذات معنىً معقول، وهو المساعدة على بلوغ الهدف. ولا يكون لها معنى إذا طلبها الأُمي الذي لم يسعَ لأي من المقدمات ورغب في بلوغ ذلك المقام عن طريق الشفاعة. وكذلك لا تتم الشفاعة لمن لا رابطة له تربطه بالمشفوع عنده أصلاً، كالجاحد الطاغي على سيده، فإنه لا ينال رضىٰ سيده بالشفاعة، فالشفاعة متممة للسبب وليست موجدة له.

كما أن تأثير الشفيع عند المولىٰ لا يكون جزافاً، فلا يحق له أن يطلب من المولىٰ إبطال قوانين الجزاء والعقاب، ولا إبطال مولويته بحق عبيده، ولا يطلب منه رفع اليد عن أحكامه وتكاليفه، بل لابد للشفيع من أن يسلّم للمولىٰ

بمولويته على عبيده، وبقوانينه وأحكامه بحقهم، وبما يجريه من الجزاء عقاباً أو ثواباً لهم.

وإنما يتمسك الشفيع بصفات في المولىٰ توجب العفو والصفح، وبصفات في العبد تستدعي الرأفة والرحمة، كحسن سابقته، وسوء حاله، واعتذاره. أي أن دور الشفيع ليس اخراج العبد من مولوية المولى ودائرة أحكامه وجزاءاته، وإنما يتمثل دوره في السعي لنقل العبد من حكم مولوي الى حكم مولوي آخر.

من هو الشفيع ؟

إتّضح مما سبق أن الشفاعة من جملة خصائص المولوية، فمن اتصف بالمولوية استطاع في دائرة نفوذ مولويته أن يمنح الشفاعة لمن يشاء لتكون مظهراً لرحمة المولىٰ وقدرته في وقت واحد، وحيث إن مولوية الله سبحانه هي المولوية الحقيقية الوحيدة في الوجود، وما عداها مولويات اعتبارية ، لذا كانت الشفاعة من جملة الحقائق المختصة به، قال تعالى: ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾[1] وما عداها إما شفاعة كاذبة؛ كقول المشركين: ﴿ ويقولون هؤلاء

(١) الزمر : ٤٤.

شفعاؤنا عند الله﴾[١]. أو شفاعة قد أذن الله بها فـهي مـأخوذة منه، عائدة إليه؛ كقوله تعالى: ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾[٢].

وقد صرّح القرآن الكريم بأن الشفاعة المأذون بها تعطىٰ لأصناف منهم:

١ ـ الملائكة: قال تعالى: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تـغني شـفاعتهم شيئاً إلا مـن بـعد أن يـأذن الله لمـن يشـاء ويرضىٰ﴾[٣].

٢ ـ الشهداء بالحق: قال تعالى: ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾[٤].

والشهداء بالحق هم طائفة من المؤمنين لابد وأن يكونوا أقلّ منزلة من الأنبياء، وأعلى درجة مـن سـائر أفـراد الأُمـة، ولاشك أنّ أهل البيت عليهم السلام يأتون في طليعة هؤلاء بـوصفهم أبرز مصداق لمن شهد بالحق وعمل به وجـاهد مـن أجـله،

(١) يونس: ١٨.

(٢) مريم: ٨٧.

(٣) النجم: ٢٦.

(٤) الزخرف: ٨٦.

فضلاً عن كونهم ممّن نصّ القرآن الكريم على عصمتهم(١).

وإذا طالعنا الأحاديث النبوية الشريفة وجدنا فيها تفسير ذلك :

قال رسول الله «صلّى الله عليه وسلّم»: «يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»(٢).

وقال «صلّى الله عليه وسلّم»: «الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيّكم وأهل بيته عليهم السلام»(٣).

وقد ذكر الشيخ محمّد بن عبدالوهاب نفسه في كتاب (كشف الشبهات): «أن الشفاعة أُعطيها غير النبي(ص) فصح أن الملائكة يشفعون، والأفراط(٤) يشفعون، والأولياء يشفعون»(٥) استناداً الى أحاديث أوردها البخاري في صحيحه ومسلم في صحيحه أيضاً(٦)، وأحمد في مسنده بهذا المعنى كما يلي:

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٢.

(٢) سنن ابن ماجة : ٢: ٣ ١٤٤: ٤٣١٣.

(٣) كنز العمال : ١: ٣٩٠.

(٤) الأفراط: المتقدّمون الى الشفاعة ، راجع لسان العرب مادة فرط.

(٥) كشف الشبهات : ٧٠.

(٦) صحيح البخاري ٩: ٧٩٨ ـ ٨٠٠، كتاب التوحيد، باب وجوه يومئذٍ ناظرة، ح ٢٢٣٩ ط دار القلم.

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي «صلى الله عليه وسلم»، قال: «قد أعطى كل نبيّ عطية، فكل قد تعجلها، وإني أخّرت عطيتي شفاعة لأُمّتي، وإن الرجل من أُمّتي ليشفع لفئام من الناس فيدخلون الجنة، وإن الرجل ليشفع لقبيلة ، وإن الرجل ليشفع للعصبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة، وللرجلين، وللرجل»(١).

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم: ﴿إنّ الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، فيقول الله عزّ وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون...»(٢).

المشفوع لهم

وقع البحث بين علماء المسلمين فيمن تكون له الشفاعة، فقالت المعتزلة : إن شفاعة الرسول «صلى الله عليه وسلم» تكون للمطيعين، لأجل زيادة الثواب وعلوّ الدرجة لهم، ولا يمكن أن تكون للعاصين، للآيات الدالة على إرتهان الإنسان

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٣:٣٩٧، مسند أبي سعيد الخدري، ح ١٠٧٦٤.

(٢) صحيح مسلم : ١:١١٦، كتاب الايمان، باب معرفة طريق الرؤية، ذيل الحديث.

بعمله، ولأن الشفاعة لاتمحو الذنوب. وجاء عن أبي الحسن الخياط ـ أحد أعلام المعتزلة ـ أنه كان يحتجّ على القائلين بالشفاعة بقوله تعالى: ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ مَن في النار﴾[١].

وردّ عليه الشيخ المفيد: بأن القائلين بالشفاعة لا يدّعون أن الرسول هو الذي ينقذ المستحقين للنار منها، وإنما يدّعون أن الله هو الذي ينقذهم إكراماً لنبيه والطيبين من أهل بيته عليهم السلام[٢].

ورأي جمهور المسلمين أن الشفاعة لأهل المعصية من المسلمين، دون الكفار والمشركين لقوله «صلى الله عليه وسلم»: «ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أُمتي»[٣].

وقد استدلّ العلّامة الطباطبائي على هذا الرأي بالقرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة* إلا أصحاب اليمين* في جناتٍ يتساءلون* عن المجرمين* ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين* ولم نك نطعم المسكين* وكنا نخوض مع الخائضين* وكنا نكذب بيوم

(١) الزمر: ١٩.

(٢) الفصول المختارة ص ٧٨ ط. دار المفيد.

(٣) مجمع البيان: ١: ١٠٤.

الدين* حتى أتانا اليقين* فما تـنفعهم شـفاعة الشـافعين﴾[١] حـيث ميّزت هـذه الآيـات بـين أصـحاب اليـمين وبـين المجرمين، وذكرت صفات جرّت المجرمين الى النار وأدّت الى انتفاء الشفاعة عنهم.

ومقتضى هذا البيان، ومن خلال سياق المقابلة والمقارنة والمـقايسة ، أن أصـحاب اليـمين الذيـن لم يـتصفوا بـتلك الصفات قد فازوا بشفاعة الشافعين، وكأن مصير المـجرمين كان لأجل سببين، أحدهما : ارتكاب مخالفات أساسية فـي مقياس الدين، ثانيهما: انتفاء الشفاعة بحق من يرتكب مثل هذه المخالفات.

ومن خلال سياق المقابلة نفهم أن مصير أصحاب اليمين ناتج عن انتفاء هذين السببين، فلم يرتكبوا مخالفات أساسية من جهة، بالنحو الذي جعلهم مشمولين بالشفاعة مـن جـهة ثانية، وإن أمكن حصول مخالفات غير أساسية منهم، وحينئذ يكون معنى الشفاعة مطابقاً لقوله تعالى: ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم﴾[٢].

فان السيئات مع الاستمرار تـتحول الى كـبائر ، وبـذلك

---

(١) المدثر : ٣٨ـ٤٨.

(٢) النساء : ٣١.

اتّضح : أن الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليـمين. وقـد قال النبي ﷺ: «انما شفاعتي لأهـل الكـبائر مـن أُمـتي أمـا المحسنون فما عليهم من سبيل»(١).

وبالتطبيق بين هذا المـوضع وبـين قـوله تـعالى: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ﴾(٢) يعتقد ﷺ أن أصحاب اليمين هم الذيـن ارتـضىٰ الله سـبحانه الشـفاعة لهـم، وأن الارتـضاء المذكور في الآيـة ليس ارتـضاءً للـعمل، لأن بـعض أعـمال المشفوع لهـم سـيئة غـير مـقبولة، فـلابد أن يكـون مـعنى الارتضاء هو ارتضاء الدين، بمعنى كون دين المشفوع لهـم مستوفياً للشروط الأساسية المطلوبة.

شبهات وردود

وفي ضوء ما سبق نستطيع أن نجيب على عدّة شـبهات أُثيرت حول الشفاعة هي:

أولاً: إن الشفاعة تعني خضوع الله سبحانه لتأثير مخلوق من مخلوقاته .

والجواب : إن المغفرة الإلهية لهـا عـدّة أسباب، مـنها:

---

(١) تفسير الميزان ١: ١٧٠. طبعة الأعلمي بيروت.

(٢) الأنبياء : ٢٨.

الدعاء، والتوبة، والشفاعة.. وكـما أن قـبول الدعـاء والتـوبة وتحقق المغفرة بهما، لا يعني خضوع الخالق للمخلوق، وإنما يعني إفاضة الرحمة الإلهية علىٰ العـبد بـعد تـحقق شـرطها وبنحو قرّره الله سبحانه نفسه ، ولم يفرضه أحد عليه، كذلك الشفاعة سبب علّق عليه الخالق سبحانه إفاضة الرحمة عـلى عباده، وهذا التعليق جاء لغرض تربوي يتمثل بتوثيق صـلة الناس بالأنبياء والأولياء وتوكيد موقعهم كقدوة وقطب وقائد للمجتمع البشري .

وما دام إنّ الله سبحانه هو الذي فتح باب الشفاعة وهـو الذي عيّن الشفعاء وحدّد خصائص ونوعية المشفوع لهم فلا يبقىٰ أي أساس لهذا الإشكال .

ثانياً: إن اللازم من الشفاعة أن يكون الشفيع أكثر رحمة وشفقة من الله سبحانه وتعالىٰ.

الجواب: قد اتضح مما تقدم أن الله هو الذي جعل الشفاعة وأذن بها لمن شاء. فالشفاعة ليست مبادرة يقوم بها الشفيع بنحو مستقل عن الارادة الإلهية ، وإنّما هـي بـاب فـتحه الله وحدد شروطه وأشخاصه ليفيض رحـمته عـلىٰ عـباده عـبر الشفعاء ، فشفقة الشفعاء شعاع مستعار من تلك الشمس.

ثالثاً : إن الشفاعة تعني وجود حكمين مختلفين للـعبد:

حكم قبل الشفاعة، وهو العقوبة بالعذاب، وحكم بعد الشفاعة، وهو النجاة والفوز بالنعيم . فإن كان الأوّل هو الموافق للعدل والحكمة كانت الشفاعة أمراً مخالفاً للعدل ، وإن كان الثاني هو الموافق للعدل والحكمة كان الأوّل ظلماً.

الجواب : إنّ لهذه الحالة نظائر ، ومن نظائرها نزول البلاء علىٰ العبد قبل الدعاء، أو قبل إعطاء الصدقة، أو قبل صلة الرحم ، وارتفاع البلاء عنه بعد تحقق الدعاء، أو الصدقة أو صلة الرحم منه . والحكمة قائمة في نزول البلاء وفي ارتفاعه بتلك الأسباب معاً، والأمر كذلك في الشفاعة.

بمعنى أن الذنب الصادر من المؤمن لا يشكّل علّة تامة لوقوع العقاب، بحيث لا يمكن أن ينفك العقاب عنه، وإنّما يشكل مقتضياً للعقاب، فإذا حصل ما يمنع وقوعه لم يقع، وقد وضع الله تعالى مواضع لوقوع العقاب ، كالتوبة، والشفاعة، والأعمال التي تكفّر الذنوب ، فإذا حصل شيء من هذا القبيل امتنع تحقق أثر الذنب.

ويمكن أن يقال : بأن الحكم بالعقوبة قبل الشفاعة موافق لعدل الله ولعمل العبد واستحقاقه، والحكم بالنجاة بعد الشفاعة موافق لرحمة الله وشفقته ورأفته .

رابعاً: إنّ الوعد بالشفاعة موجب لجرأة الناس

على المعاصي.

وجوابه: إنّ الأمر إذا كان كذلك فلابد من غلق باب التوبة ورجاء الرحمة الإلهية ، فإن حكمة الله شاءت أن يفتح أبواب الأمل بوجه العاصين من عباده، لكي تبقىٰ لهم بقية ارتباط معه ولا يقعون ضحية اليأس والقنوط الذي يؤدي بهم إلى المزيد من التردي والانحطاط.

وسوف لا يكون في الشفاعة ـ كما في المغفرة وقبول التوبة ـ إغراءٌ بالذنوب والمعاصي بحال من الأحوال ، وإنّما هي منافذ للرجاء والأمل ، وذلك لأمرين:

أحدهما: إنّ الوعد بالشفاعة لم يعيّن أشخاص المذنبين الذين ستُقبل فيهم الشفاعة، فما زال العباد إذاً يرجون أن ينالوها، وليس أكثر ، ومن هنا دخلت في الدعاء على هذا النحو، كما في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام : «وشفِّع فيَّ محمداً وآل محمد، واستجب دعائي...»(١).

والثاني: إنّ المولى تعالى لم يحدد أنواع الذنوب التي تقبل فيها الشفاعة، ولم يصرح بمستوى تأثير الشفاعة ، فهل أنها ستزيل كل ألوان العقاب أصلاً، أم لا ؟ من هنا فالأمر لم يخرج عن دائرة الرجاء الى دائرة الإغراء.

---

(١) الصحيفة السجادية (الطبعة المحقّقة) ٢: ٢٨٢.

خامساً: إنّ الشفاعة الجائزة هي أن يدعو المؤمن قائلاً: «اللهم شفّع نبيّنا محمداً فينا يوم القيامة»، ولا يجوز له أن يقول: يا رسول الله اشفع لي يوم القيامة. لأنه من الشرك في العبادة الذي يشبه عمل عبدة الأصنام الذين كانوا يقولون: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[1] وأنّ الله يقول: ﴿لا تدعوا مع الله أحداً﴾، وبالتالي فالشفاعة بالصيغة الثانية تكون من قبيل طلب الشفاعة من غير مالكها، وأن طلب الشفاعة من الميت أمر باطل.

وجوابه: إن الشرك في العبادة يقوم على ركنين هما:

١ ـ اعتقاد التدبير والخلق فيمن يُتخذ إلهاً، أو الاعتقاد بأن أُمور الخلق والتكوين قد فوّضت إليه.

٢ ـ إبداء الخضوع والتسليم للذات المتخذة إلهاً كتعبير عن العبادة لها. وطلب الشفاعة من الرسول ﷺ والأولياء يفتقد هذين الركنين، فليس هناك اعتقاد بقدرة ذاتية في الرسول ﷺ على التدبير والخلق، وليس هناك اعتقاد بأن الأُمور قد فوّضت إليه، وليس هناك خضوع وتسليم له بما هو شخص وإنسان، وكل ما هناك أن للرسول ﷺ عند الله مكانة ومنزلة رفيعة بحيث جعل له أن يشفع لأُمته.

---

(١) يونس: ١٨.

والآية الواردة في الاشكال بدايتها هكذا: ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، فالشفاعة الشركية الباطلة جاءت مقرونة بعبادة الأصنام، متفرعة عليها، ومن هنا جاء بطلانها ، وليس الأمر في طلب الشفاعة من الرسول مقروناً بعبادته حتى يكون باطلاً.

ثم إنّ المعيار في الحكم بالصحة والبطلان ليس هو المشابهة الصورية بين فرض وفرض آخر، ولو كان الأمر كذلك لكان السعي والطواف ونحوهما من جملة مظاهر الشرك ، لأن المشركين كانوا يقومون بهما.

وأما قوله تعالى: ﴿ لا تدعو مع الله إلهاً آخر﴾ فالجواب فيه نفس ما مضىٰ، وهو أن الآية ناظرة الى ماكان من الدعاء بنحو العبادة، واذاكان الداعي يخاطب رباً وإلٰهاً، فجاءت الآية لتنهىٰ عن عبادة غيرالله سبحانه وتعالىٰفي باب الدعاء، وليست ناظرة الى كل طلب من كل مطلوب، ولو كانت بهذا المعنى لكانت ناهية عن شيء هو قوام الحياة الاجتماعية بحيث لا يمكن افتراض قيام الحياة الاجتماعية بدونه وهو التعاون، وهل يعقل أن ينهى الشرع عن طلب يتقدم به المسلم لدىٰ مسلم آخر ويريد منه إنجازه ؟ وهل يسمى هذا

النوع من السلوك دعاءً لغير الله؟

قد يقال: إنّ الشفاعة ليست من هذا النوع، وإن وجه الاشكال فيها أنها طلب شيء من خصوصيات الإله والمعبود، وأن الآية ليست ناهية عن كل طلب، وإنما هي ناهية عن طلب ماكان من خصوصيات الأُلوهية، وأن هذا النوع من الطلب من مصاديق دعوة غير الله سبحانه.

والجواب: إنّ طلب الشفاعة من الرسول ﷺ لا يراد به اظفاء خصوصية الأُلوهية عليه ﷺ حتى يكون من قبيل دعوة غير الله سبحانه، بل لمّا ثبت أن الله سبحانه وتعالى قد أذِن للرسول ﷺ بالشفاعة جاز لنا أن نطلب ذلك منه، كما نطلب حاجتنا من كل قادر عليها، وهو طلب يؤكد التوحيد وليس فيه شائبة من الشرك، لأنه ينتهي الى إذن الله سبحانه. وإنما أبطل الله الشفاعة الشركية بقوله تعالى: ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ لأن هذه الشفاعة لا تنتهي الى إذن الله سبحانه ، فإن الله لم يأذن في شفاعة هؤلاء، ولم يجز للإنسان أن يختار شفعاءه بنفسه، وإنما أجاز له أن يطلب الشفاعة ممن هو مأذون من قبله تعالى في ذلك، وشفاعة الرسول ﷺ من هذا القبيل.

وأما قولهم: «إنّ طلب الشفاعة من الرسول ﷺ طلب لها من غير مالكها» فقد اتضح جوابه، فإن المالك الحقيقي

للوجود هو الله سبحانه وتعالى، وكل مالك عداه إنما يملك بالملكية الاعتبارية الصورية، فإن كان الغرض من هذا الاشكال عدم جواز طلب شيء إلا من مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فهذا المعنى يلزم منه إبطال الحياة الاجتماعية القائمة على التعاون والتبادل وطلب الأشياء ممن يملكها بالملكية الاعتبارية، وطلب الشفاعة من الرسول ﷺ طلب لها من مالكها الاعتباري، بعدما ثبت أن الرسول ﷺ مأذون من قبل الله سبحانه في الشفاعة لأُمته، وإذا كان طلب الأشياء ممن يملكها بنحو الملكية الاعتبارية باطلاً وشركاً، فلتتوقف الحياة الاجتماعية لأنها حياة لا تقوم إلا بما هو شرك باطل!!

وأما قولهم الأخير بأن: «طلب الشفاعة من الميت أمر باطل وأن شفاعة الرسول ﷺ من هذا القبيل» فهو أوهن من بيت العنكبوت، وهو لا يتناسب مع إنسان يؤمن بالغيب، وإنما يتناسب مع إنسانٍ مادي يرى المادّة خلاصة الوجود وحدّها الأخير، فنحن لسنا ممن يؤمن بأن الجسد هو بداية الإنسان ونهايته، فاذا مات وأُقبر وأُلحد انتهى كل شيء، وإنما نؤمن بأن الحقيقة الإنسانية متجسدة بالروح، وأن الجسد مظهر مادي لهذه الحقيقة وأن الموت ينال الجسد ولا ينال هذه الحقيقة، هذا بالنسبة لكل إنسان، أما الأنبياء والأولياء

المقربون من الله سبحانه وتعالى فلأرواحهم شأن خاص ومنزلة خاصة ليس بوسعنا إدراكها، وبالتالي فنحن لا نطلب الشفاعة من الجسد الميت، وانما نطلبها من الروح التي لا تموت، نطلبها من روح إنسان هو أشرف الأنبياء والمرسلين، ولو كانت علاقتنا بالرسول ﷺ علاقة بجسد ميت فما معنىٰ سلامنا عليه في الصلوات اليومية الخمسة؟ وما معنىٰ شهادة الرسول ﷺ علينا وعلى أعمالنا كما هو صريح القرآن الكريم؟

وبعد كل هذا فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنّه علّم بعض أصحابه التوسل به وطلب الشفاعة منه، وذلك في المشهور من قصة الأعمى الذي شكىٰ الى النبي ﷺ حاله، فأرشده أن يتوضأ ويصلي ركعتين، ثم يقول بعدهما: «اللهم إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إنّي أتوجه بك الى ربّي في حاجتي ليقضيها، اللهم فشفّعه فيَّ» فعل ذلك فردّ الله إليه بصره.

وقد نقل ابن تيمية نفسه هذه القصة ونقل عن الكثير من السلف العمل بهذا الدعاء في حياة النبي وبعده[١]

---

(١) انظر: التوسل والوسيلة لابن تيمية: ٩٧ـ١٠٦.

خلاصة البحث

إنّ الشفاعة رحمة يفيضها الله على عباده عبر وسائط يختارها ويعيّنها سبحانه وتعالى لأهل التوحيد، كما نصّ على ذلك كتاب الله تعالى ونصوص السنّة النبوية الشريفة.

وليس فيها شيء من الشرك، بل هي شاهد آخر على إرادة الله المطلقة وقدرته الفائقة ورحمته الواسعة ولطفه العميم الذي جعله لمن كان قابلاً لذلك.

الفهرس



المجمع العالمي لأهل البيت

تُعنى هذه السلسلة بإثارة موضوعات ومفاهيم إسلاميّة مهمَة، لتضعها في دائرة الضّوء من أجل المساهمة في تشكيل عقلية إسلاميّة أصيلة وواعية تعتمد القرآن الكريم والسنّة الشريفة.